

الكَيْدُ الْأُمَوِيُّ فِي أُسْرِ نِسَاءِ الرِّسَالَةِ



الهدف:

التعرّف على معنى السبي وتاريخه
وموقف الإسلام منه، ومواجهة السيدة زينب
- أهداف الأمويين من أسر نساء الرسالة ﷺ للطغاة.

مباحث الموضوع

الجدور التاريخية لظاهرة السبي
- موقف الإسلام من السبي
- أهداف الأمويين من أسر نساء الرسالة ﷺ في مواجهة الطغاة

تصدير:

قالت زينب ﷺ في خطبتها الشهيرة في مجلس الطاغية يزيد «... فكذ كيدك واسع
سعيك وناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تمتيت وحيانا ...»

الافتتاح:

يُروى سهل بن سعد الساعدي: أَقْبِلْتُ عَلَى عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ ﷺ وَقُلْتُ لَهُ: مَوْلَايَ هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟ فَقَالَ لِي: هَلْ عِنْدَكَ مِنَ الدَّرَاهِمِ شَيْءٌ؟ فَقُلْتُ: أَلْفُ دِينَارٍ وَأَلْفُ رُقَّةٍ. فَقَالَ: خُذْ مِنْهَا شَيْئًا وَادْفَعْهُ إِلَى حَامِلِ الرَّأْسِ وَأَمْرِهِ أَنْ يَبْعِدَهُ عَنِ النِّسَاءِ، قَالَ سَهْلٌ، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ وَرَجَعْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: مَوْلَايَ فَعَلْتُ الَّذِي أَمَرْتَنِي، هَلْ مِنْ حَاجَةٍ أُخْرَى؟ قَالَ: يَا سَهْلُ هَلْ عِنْدَكَ ثَوْبٌ عَتِيقٌ؟ قُلْتُ: سَيِّدِي مَا تَصْنَعُ بِهِ، (أَنْتُمْ تَهْدُونَ إِلَى النَّاسِ الثِّيَابَ الثَّمِينَةَ وَتَسْأَلُنِي ثَوْبًا بَالِيًا)؟ قَالَ: يَا سَهْلُ لَأَضَعَهُ تَحْتَ الْجَامِعَةِ فَإِنَّهَا أَكَلَتْ عُنُقِي. قَالَ سَهْلٌ: فَتَاوَلْتَهُ الثَّوْبَ، فَلَمَّا رَفَعَ الْجَامِعَةَ سَالَتْ الدَّمَاءُ مِنْ تَحْتِهَا.

الجدور التاريخية لظاهرة السبي

لقد كان السبي ظاهرة موجودة عند الأمم السابقة، ففي شريعة حمورابي كانوا لا يعدّون أولاد الرجل من جاريته أولاداً شرعيين، إلا إذا نسبهم إليه، فإذا نسبهم إليه كان لهم حق الإرث، وإلا فلا ميراث،

أنّه، أي: السبي، كان منذ مدة ليست بالقصيرة قبل ظهور الإسلام، إذ يروي اليعقوبي في تاريخه قائلاً: (أول من سبى السبائيا من العرب: سبا بن يعرب بن قحطان، وكان اسم (سبا) عبد شمس، وهو أول ملك ملوك العرب وسار في الأرض وسبا السبائيا)^(١).

موقف الإسلام من السبي

كل هذه المعاناة والآلام حاربها الإسلام ووضعه لها قانوناً جديداً، يركز على حفظ كرامة الإنسان، ولاسيما المرأة مع تقنين عملية الرق القائم على حفظ الحقوق الإنسانية أولاً وكسب الخدمة من الرق المملوك وحفظ حق المالك.

إلا أنّ هذا الجهد الكبير لم يكن موازياً لتلك الترسبات التاريخية التي ضربت في المجتمع الإنساني سواء كان في أرض الرافدين أو عند أرض النيل أو الرومان وغيرهم.

فقد تعامل الإسلام مع تلك الظاهرة التي وجدها قائمة بين أمم الأرض في تلك المرحلة من تاريخ الإنسانية، لأنه دين واقعي يعطي لكل مشكلة حلاً، فضيّق الإسلام هذا الباب، وشدّد في حرمة بيع الحر واسترقاقه، وحصر دائرة الرق فيما

لكنهم يمتقون. والرومان كانوا يعدون أولاد السبائيا عبيداً كأمهاتهم. وكان (اليهود) لا ينسبون ابن الجارية إلى أبيه وإن تهوّد، وجرى (الآشوريون) على حرمان أبناء السبائيا من الميراث إلا إذا لم يكن للأب أولاد من زوجة حرة. وكذلك (البابليون) لم يورثوا ابن الأمة إلا إذا اعترف به أبوه أمام شهود. ولم تسمّ أمة بأبناء الإمام كما سمت مصر، لأن (المصريين) كانوا يسمونهم بأبناء الزوجات الشرعيات، حتى في التريبة والميراث.

السبي عند العرب القدماء

أما العرب قبل الإسلام فكانوا لا يلحقون أبناءهم من الإماء بنسبهم، فلا يرثون إلا إذا ادعواهم، وأشهدوا على أنّهم ألصقوا بهم نسبهم، فإن لم يلحق الرجل ابنه بنسبه استعبده...^(١).

فهذا الرصيد التاريخي للسبائيا والسبي والرق قد ضرب في الجزيرة العربية بكل قوة ونشأت حالة طبقية كبيرة في المجتمع العربي تعتمد على الغزو والأسر والسبي كي تروي ظمأ شهوات الرجال، وتطفئ نيران غرائزهم. وإن الوقوف على جذور السبي في الجزيرة العربية يدل على

(١) شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين للسيد علي القبانجي: ص ٤٥٥

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ١، ص ١٩٥

أخذ من طريق الجهاد المشروع، ثم سعى لتحرير الأرقاء بكل ممكن مشروع، ورغب في ذلك ترغيباً ظاهراً بفتحه وتكثيره لمجالات العتق، ككفارة اليمين والظهار والقتل، مع حثه وتأكيده على الإحسان إلى الرقيق وتعليمهم وتأديبهم وإكرامهم وإعانتهم.. ونهج في القضاء على هذه الظاهرة طرقاً كثيرة ولو استقام المسلمون على المنهج التام للإسلام لاخفى الرق وقضي عليه في البشرية كلها.

أهداف الأمويين من أسر نساء الرسالة

يقع هدف أسر النساء والأطفال بعد معركة كربلاء ضمن السياسات الأموية البغيضة عبر التاريخ، والقاضية بالثار من بني هاشم، والقضاء المعنوي والمادي على سلالة رسول الله ﷺ، وعدم تمكينهم من الحكم، أو حتى من العيش بأمان وراحة بين أصحابهم وأهلهم، ولهذا فإن ما حصل من جرائم في كربلاء، وبعد كربلاء يقع في هذا السياق. فإن العمل الذي قام به عبيد الله بن زياد بعد يوم كربلاء كان أمراً له مقاصده السياسية، ولم يكن المطلوب منه أو المقصود منه أن تكون النساء مملوكات. لذلك يُحفظ على لفظ السبايا، فلقد كان هناك عمل سياسي ومقاصده السياسية واضحة.

الأماكن التي مر ووقف فيها موكب الأسرى: ويتضح هذا الهدف أكثر عندما نتأمل في مسیر أسارى أهل البيت (عليه السلام)، فلم يكتفوا بأخذهم إلى الشام، فطافوا بهم في البلدان إلى أن يصلوا بهم إلى عاصمتهم الشام، ليراهم كل إنسان مكشفات الوجوه وفي أيديهم الأغلال والسلاسل. فكان مسیر بنات الرسالة التفصيلي من كربلاء إلى الكوفة

جنوباً من ثم القادسية بعدها شمالاً إلى تكريت و الموصل، ثم غرباً عبر جبل سنجار، ثم منطقة الجزيرة في الشمال السوري، و بعدها إلى حلب، حماة، بعلبك في لبنان وصولاً إلى دمشق في سوريا.

ويروي المؤرخون: لما أدخلوا الرؤوس والسبايا في دمشق الشام، أمر يزيد فزيت داره بأنواع الزينة، وأوصلوا الرؤوس والنساء وقت الزوال إلى باب يزيد، فأوقفوهم ثلاث ساعات ليأذن لهم يزيد بالدخول، بعد ذلك أدخلوا بنات رسول الله ﷺ وحريمه عليه.

السيدة زينب (عليها السلام) في مواجهة الطغاة:

- لما قال ابن مرجانة سائلاً عنها، فقال: من هذه التي انحازت ناحية ومعها نساؤها؟ فأعرضت عنه احتقاراً واستهانة به، وكرّر السؤال فلم تجبه، فأجابته إحدى السيدات : هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ. فقال لها: الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم، وأبطل أعدوئكم. فأجابته (عليها السلام) بشجاعة أبيها محترمة له قائلة: «الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه، وطهرنا من الرجس تطهيراً، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا يا بن مرجانة».

المواجهة مع رأس الظلم: لما وصلت قافلة الأسرى إلى مجلس الطاغية يزيد بن معاوية في الشام وأظهر الطاغية فرحته الكبرى بإبادته لعتره رسول الله ﷺ وأخذ يهز أعطافه جذلاً وراح يترنم هذه الأبيات التي مطلعها:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِدِرْهِمٍ شَهِدُوا
جَزْعَ الْخَرْجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسْلِ
ولما سمعت العقيلة هذه الأبيات ألقت خطبتها الشهيرة بفصاحة

وشجاعة أبيها علي (عليه السلام) وقد ضمنتها أعنف المواقف لفرعون عصره يزيد ومما قالت (عليها السلام) :

- (أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ، صَدَقَ اللَّهُ كَذَلِكَ يَقُولُ: ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السؤى أن كذبوا

بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون)...
- وَلَئِنْ جِئْتُ عَلَى الدَّوَاهِي مُخَاطِبَتِكَ، إِنِّي لَأَسْتَصْغِرُ قُدْرَكَ، وَأَسْتَغْظُمُ تَقْرِيبَكَ، وَأَسْتَكَثِرُ تَوْبِيخَكَ، لَكِنَّ الْعُيُونَ عَبْرَى، وَالصُّدُورُ حَرَى. أَلَا فَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لَقَتْلِ حَزْبِ اللَّهِ النُّجَبَاءِ بِحَزْبِ الشَّيْطَانِ الطُّلُقَاءِ.

- أَمِنْ الْحَدَلِ يَا بَنَ الطُّلُقَاءِ تَخْدِيرُكَ حَرَائِكَ وَأَمَامَكَ وَسُوقَكَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ سَبَايَا؟ قَدْ هَتَكَتِ سُتُورَهُنَّ، وَأَبْدَيْتِ وُجُوهَهُنَّ، تَحْدُو بِهِنَّ الْأَعْدَاءُ مِنْ بِلَدٍ إِلَى بِلَدٍ.. وَيَصْفَحُ وُجُوهَهُنَّ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ...

- أَلَلَّهُمَّ خُذْ بِحَقِّنَا، وَانْتَقِمْ مِنْ ظَلَمْنَا، وَأَحْلِلْ غَضَبَكَ بِمَنْ سَفَكَ دِمَاءَنَا وَقَتَلَ حِمَاتَنَا. فَوَاللَّهِ مَا قَرِيتُ إِلَّا جِلْدَكَ، وَلَا حَزَزْتُ إِلَّا لِحْمَكَ، وَلَتَرِدُنَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا تَحَمَّلْتِ مِنْ سَفَكِ دِمَاءِ ذُرِّيَّتِهِ، وَأَنْتِ تَهْتِكُ مِنْ حُرْمَتِهِ فِي عِثْرَتِهِ وَلَحْمَتِهِ...

- توبيخ الطاغية أمام أعوانه: ومما قالتها العقيلة في توبيخ يزيد: ... فَكَيْدُ كَيْدِكَ، وَأَسْعَى سَعْيِكَ، وَنَاصِبُ جَهْدِكَ، فَوَاللَّهِ لَا تَمَحُونُ ذِكْرَنَا، وَلَا تُمِيتُ وَحِينًا، وَلَا تُدْرِكُ أَمَدَنَا، وَلَا تَرْحُضُ عَنْكَ عَارَهَا....